النفس

بين التحليل النفسي والعلم

اعداد : داوود حجازي

تستأثر الأبحاث والدراسات العديدة، التي قُدمت أثناء انعقاد المؤتمر السنوي العالمي للتحليل النفسي، الذي افتتح في مطلع شهر تشرين الأول، عام 1985 في مدينة هامبورغ الالمانية الغربية، وحضره العديد من الباحثين المتخصصين في حقل التحليل النفسي، في مختلف بلدان العالم، باهتمامات الأوساط العلمية والثقافية كافة. ومرد ذلك هو ارتفاع بعض الأصوات التي تندد بأبي التحليل النفسي « سيغموند فرويد » وتدعو الى تدمير « قصره الذي شاده من الكرتون ».

وفي هذا البحث الموجز، سنحاول وضع القارىء العربي في أجواء هذا المؤتمر، من خلال عرضنا لبعض الدراسات والنظريات الجديدة التي أعلن عنها، خصوصاً وان بعضها يدعو الى اسقاط فرويد عن عرشه.

تقدم

انطلق التحليل النفسي من بداية متواضعة ـ طريقة لعلاج الحالات الهستيرية ـ ليطرح، خلال فترة وجيزة، قضية الوجود الإنساني ككل، وذلك من خلال مسألتي السلطة والرغبة، حيث تكمن المعركة الحقيقية ضد الاستلاب المزدوج: اللاوعي والإجتماعي. وجدير بالذكر ان التحليل النفسي قد أحدث انقلاباً جوهرياً فكرياً طبع مفاهيم هذا العصر بطابعه. فقد أعاد النظر في غالبية المفاهيم والتصورات والمعتقدات السائدة.

ولكن اذا كان معتنقو النظرية التحليلية الفرويدية، يؤكدون على أهمية التحليل النفسي، كطريقة طبية وحيدة، لعلاج كل الأمراض النفسية واذا كانوا يعتقدون، بأن التحليل مهيأ ـ نتيجة لحالة الانحلال الأخلاقي والاستلاب (وهو ما ساعد على انتشار مدارس التحليل النفسي، المتعددة، في العالم الصناعي) ـ للحلول محل الدين. فإن هنالك عدداً من مدارس التحليل النفسي، يرى « ان الأديان تعدنا بالكثير، بينما لا يعدنا التحليل النفسي بشيء. فهو يختزل الإنسان الى بعده الجنسي، ويُرجع كل مظاهر السلوك الى هذا الدافع.، وبأنه، يصادر حرية وانسانية الإنسان، لمصلحة الجماعة وسلطتها القائمة ».

والحقيقة، هي ان التحليل النفسي، تعرّض ولا يزال، للإنتقادات اللاذعة والساخرة. من هنا، فإن السؤال المطروح الآن، هو انه، اذا كان علماء النفس والفلاسفة، قد عجزوا عن دحض مقولة التحليل النفسي، فهل

(★) عن « فرانكفورتر ألغماينه »، 8 تشرين الأول 1985.

سيتمكن التربويون والأطباء والمتخصصون في علوم الأعصاب، والبيولوجيا والكمبيوتر والتكنولوجيا الحديثة، من تقويض أسس ودعائم «القصر الكرتوني الذي شاده، ذلك «البرجوازي اليهودي»، كما يقول البعض، سيغموند فرويد؟ وهل وصلت نظرية التحليل النفسي الى طريق مسدود؟

فرويد وبراءة الأطفال

يقول فرويد في احدى رسائله الى صديقه جونس «ان رجلاً مثلي، لا يستطيع أن يعيش، كما قال شيلر، دونما طاغية. ولقد عثرت على طاغيتي: انها علم النفس، وأعتقد بأنني اقتربت من الوصول الى هدفي، في كشف خفايا النفس الإنسانية. ولذلك فانني أسعى حالياً لتحقيق هدفين اثنين: فهم الوظائف النفسية في ضوء الاعتبارات الكمية، واستخلاص، ما يصلح لعلم النفس السوي، من علم النفس المرضي»، ولقد كتب فرويد هذه الرسالة، عقب نشرة له لدراسته الشهيرة التي أعلن فيها، «ان السبب الكامن وراء خوف الأطفال من الأحصنة (حالة الطفل الصغير هاينز، ٥ أعوام)، انما هو رغبة الطفل اللاواعية بالإتصال الجنسي مع الأم». ولا تزال هذه الدراسة، التي يشرح فيها فرويد، كيف استطاع خلال عام واحد، تبديد مخاوف الطفل من الحصان، حتى يومنا هذا، مرجعاً هاماً لعلماء النفس والتربية، وفي الوقت نفسه موضوعاً لنقاشات حادة. وفي الوقت نفسه الذي يعلن فيه اتباع فرويد، ان هذا البحث، هو البرهان القاطع على صدق نظرية الأوديب، قال النفساني الالماني الشاب ايشنرودر، في محاضرته التي ألقاها، أثناء انعقاد المؤتمر الأخير: «ان دراسة فرويد هذه، لا تحدد طبيعة الصراعات والمآزم النفسية اللاوعية. والعمليات السيكولوجية. وخلّص الى القول ان التحليل النفسي الفرويدي، لا يعدو كونه ضرباً من ضروب الدجل والشعوذة».

أما الفرويديون، فقد، أعلنوا، ان التحليل النفسي لا زال صامداً، رغم الهجمات العنيفة التي يشنها أعداؤه ضده. فهم جميعهم (فريدمان، روجرز، رايش...) لم يتمكنوا من تجاوزه. وليس أدل على ذلك من أن المصطلحات السيكولوجية (مكبوت، معقد، نرجسي، سادي... الخ) تحتل حيزاً بارزاً في لغتنا اليومية. وان فرويد، كما قال المحلل النفساني الأميركي «سبوتر»، قد أصبح جزءاً من العقل الباطني الجماعي في المجتمع الصناعي».

ورأت المحللة النفسية البروفسورة، كارين بورغ، «ان مملكة أوديب، محاصرة في هذه الأيام حصاراً محكماً. وبرهانها على ذلك ان الأبحاث العلمية التي أجريت حول الدماغ، توصلت الى القول، أن الصورة التي رسمها فرويد للجهاز النفسي (الانا، الهو، الانا الأعلى) ليست سوى تركيبة بدائي بسيط، لا نستطيع في ضوئه، حل العمليات المعقدة التي تحصل في الدماغ، وتحديداً في الجهاز العصبي المركزي. واستشهدت بنظريات علماء السلوك والفيزياء الحيوية القائلة، بأن نظرية فرويد، ساذجة بسيطة ولا يمكن، بأي حال من الأحوال، إثباتها علمياً. فالباحثون في مجال الأحلام والعمليات الفيزيولوجية، لم يجدوا «ان الأحلام هي الطريق الملكي المؤدي الى الوعي»، كما يقول فرويد، بل انها، كما يقولون، عملية تنظيف للدماغ. وان حياة النهار تتكرر في الحلم. فهو يأتينا دائماً بأشياء جديدة، فالأحلام، هي الوسيلة الوحيدة، التي تحصن الإنسان ضد الهلوسات». وأضافت قائلة: «ان فرويد صاغ نظريته حول العُصاب، انطلاقاً من تجربته الشخصية، وأحداث الطفولة التي عاشها. ولذا فإن مفاهيمه العديدة، مثل الإغراء، الكبت، الهوام، الخصاء... هي في أحسن الأحوال «ألبوماً» للصور المجازية، لا يفيد أبداً في عملية الوصف والتحديد العلمي الدقيق للبنى والوظائف النفسية، ناهيك انها توصد، أبواب البحث العلمي الدقيق والموضوعي، وهنا يكمن سر خطورة نظرية فرويد».

أما المحللة النفسانية الفرنسية - Janine Chasseguet Smitgel فإنها رأت في هذا المؤتمر الذي يعقد في المانيا

الغربية، بعد انقطاع دام مدة خمسين عام، بأن التحليل النفسي بدأ يعود الى موطنه الأصلي. وبأن النظريات الجديدة، والمنشقين عن فرويد، لا تلغي الدور الرائد الذي لعبه سيغموند فرويد في تاريخ علم النفس. وذلك لكونها عاجزة عن تحديد نقاط الضعف والخلل في نظرية فرويد. وانها في غالبيتها تركز على الجوانب الأخلاقية (الجنسية) دون سواها.

جوزيف بروير: المعلم الأول.

والدراسة التي استغرقت وقتاً طويلاً من النقاش، هي تلك التي تتمحور حول نشوء التحليل النفسي. يقول المحاضر: «يعود الفضل في اهتمام فرويد، بعلم النفس (الطاغية التي لا يستطيع العيش بدونها) الى الطبيب النمساوي، جوزيف بروير، الذي كان يعالج الهستيريا بواسطة تقنية التنويم المغناطيسي التي مهدت لنشوء التحليل النفسي الفرويدي ويقول بروير، اذا وصل المُعَالجُ الى حالة من الغيبوبة، يستطيع في أثنائها، استعادة الذكريات المكبوتة (المؤلمة) في حقل اللاوعي، يشفى من مرضه. غير أن بروير لم يواصل هذه الطريقة، تاركاً لفرويد فرصة للقيام بهذه المهمة ثم ان فرويد، اعتمد على النتائج التي كان قد توصل اليها «شاركو»، الذي كان يقول، بأن للجنسية، الدور البارز في الهستيريا. ولقد أحرز «شاركو»، تقدماً كبيراً في هذا المجال ـ مجال الكشف عن أسباب الهستيريا، فهو، كما يقول فرويد نفسه «الطبيب العظيم الذي يتصل رشده بالعبقرية».

.. وللعلماء دورهم

يقول عالم البيولوجيا البريطاني «ميداور»، في محاضرته: «ان فرضيات فرويد، هي صورة عن النماذج الفيزيولوجية، التي عُرفت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. نقلها فرويد بتعابير نفسانية. فالطاقة التي يسميها «Libido» هي نموذج «Typ» استوحاه من العالم «فيخنر» الذي يؤثر عنه قوله: «كل تفسير يجب أن يعتمد على مفهوم الطاقة والقوة». ولذلك، فإن النظرية التحليلية لم تعد كما يقول «سولوفاي» تلك الفزاعة المثيرة والمخيفة. انها عبارة عن بناء شُيِّد وفقاً لتصميم هندسي خاطىء. ولذلك تصدعت أركانه، ولا جدوى من محاولات ترميمه وهذا البناء، هو النظرية التحليلية الفرويدية، التي أصبحت كالديناصور، أو المنطاد في عالم الأفكار».

وجدير بالذكر ان النفساني الشاب. «سولوفاي»، هو الذي دق (عام 1979) المسمار الأول في نعش نظرية التحليل النفسي. حيث قال ان فرويد هو بطل معزول عن عرش البطولة، ونظريته لا تختلف عن مقولة الشعب المختار انها خرافتين قديمتين، ان فرويد اقتبس نظرياته ومفاهيمه عن الآخرين، وفي مقدمتهم صديقه الطبيب فليس، الذي كان يقول بوجود علاقة سيكوسوماتية بين الأعضاء الجنسية وخاصة الشم. والذي كان يعالج الإضطرابات الجنسية بواسطة الكوكايين. كما كان يجري العمليات الجراحية مستخدماً الكوكايين كمخدر. وقد عولج فرويد في عيادته، بغية التخلص من عوارض العصاب التي عانى منها مدة طويلة!!!؟

ولقد دفعت دراسة «سولوفاي» الباحثين، لمعاودة دراسة الإرث الذي خلفه فرويد. والتركيز، خاصة على دراسة حول الهستيريا. والتي أعلن فيها ان جميع الهستيريين اعترفوا، بشكل مباشر أو غير مباشر. (وهم بنات البرجوازيين) انهم تعرضوا في طفولتهم لاعتداء جنسي من قِبل الأخ أو الأب. وان هذه الصدمة، هي السبب الكامن خلف العوارض العوارض العصابية، ولقد وصل به الأمر الى اتهام والده بالشذوذ. فقد لاحظ فرويد ان شقيقاته، يعانين من العوارض الهستيرية؟!

وهنا تساءل البعض، ما الذي دفع فرويد، لاتهام والده بالشذوذ الجنسي؟ ومن ثم اعتماد أحداث الاعتداءات الجنسية، كحقيقة تاريخية حصلت بالفعل؟؟

في محاولة منها للإجابة على هذا السؤال قالت النفسانية «كرول» ان فرويد، وبعد مضي حوالي ثلاثين عاماً، على اعلانه لهذه النظرية، التي ليس لها ما يبررها علمياً، والتي

قوبلت بالتذمر والإستياء، أجاب على هذا السؤال بقوله: «كنت في تلك الفترة، عاجزاً عن التمييز بين الواقع والخيال». ثم ان فرويد صُدم بموت والده، وزاده، اتهامه له بالشذوذ، ألماً وحزناً. وبدأ يفكر بإخراج والده من قفص الاتهام (!) وعاش آنذاك أزمة نفسية حادة أدت الى اصابته بالشلل؟!! وفي تلك الفترة بالذات، بدأ بتحليله لنفسه، لإعتقاده، بأن الداء الذي أصابه ذو منشأ نفسي». وحول هذا الموضوع يقول فرويد نفسه: «انني أعاني حالياً، من شلل عقلي. والمرض الذي يشغلني هو نفسي إن التحليل الذي أجريه على نفسي، هو أصعب من أي تحليل آخر. والى ذلك أيضاً، يعود سبب تعطيل قدرتي عن كتابة كل ما توصلت لاكتشافه». ويقول جونس، ان الذي دفع فرويد لتحليل نفسه، هو نظرياته حول مسببات العصاب عند الهستيريا من جهة، والإنقلاب النفسي الذي حصل عنده، نتيجة اكتشافه خطأ نظريته حول الاغراء الجنسي البكر، ووفاة والده من جهة أخرى. ولذلك لا بد وأن يتوج فرويد تحليله لنفسه بتبرئة الأب!! وصياغة نظرية الهوام، والتركيز على الهوامات الأولية لدى الأطفال. حيث استثنى الطفل من العلاقة بين الأم والأدب. ولقد توصل فرويد الى حل أزمته، حين اكتشف هوام عقدته الأوديبية، حيث يقول: «وجدت نفسي في مشاعر حب نحو والدتي وغيره من والدي». وعلى هذا الأساس تبلورت مفاهيمه حول «ملحقات الأوديب»: الخصاء، التعلق، التماهي، الافتراس... وألغى مقولة براءة الأطفال. وأعلن ان الطفل هو المتواطىء وليس الراشد»؟

وبذلك استطاع فرويد تبرئة والده. ولذلك أيضاً، أعلن أن الشرط الأساسي لنقل وتعليم التحليل النفسي، هو التحليل الذاتي، حيث يكتشف المتعلم، ما اكتشفه فرويد. ويُفرغ اللاوعي من محتواه. والحقيقة هي، كما يقول اتباعه، انه باكتشافه لنظرية الهوام (fautasm) استطاع الخروج من الطريق الذي كاد يوصله الى النفق المظلم».

وحين أعلنت المحللة النفسية «أليس ميلر»، إن الهستيريين، الذين عالجتهم في عيادتها، سردوا وهم على أريكة التحليل، أحداثاً تعرضوا خلالها، لاعتداء، أو لمحاولة اعتداء من قبل شخص راشد. إنبرى النفساني الأميركي ماسون الى القول: «ان هذه النظرية (أي الإعتداء الجنسي) تقوم على خدعة كبيرة، ولكنها لا تنطلي على أحد. فالتحليل النفسي بشكل عام، ينحاز في الحرب الدائرة بين الأقوياء والضعفاء، الى جانب الأقوياء. فهو عوضاً عن تحميل المسؤولية للراشد (القوي) يحملها للطفل الذي لا يدرك شيئاً (الضعيف). كما انه يهمل الدور الذي يلعبه الأهل والثقافة الإجتماعية في عملية تكوين العصاب. فالعصابي هو ضحية الصراع، المعلن أو الخفي، بين الأم والأب.

وهنا لا بد من الإشارة الى أن نتائج الدراسات الميدانية المقارنة، بينت، كما قال، راينر آبل، ان حالة العصابي تتحسن، بل ويشفى من مرضه، سواء، خضع، أم لم يخضع للتحليل النفسي. كما بينت أيضاً، ان التحليل، يزيد في أكثر الأحيان حالة العصابي سوءاً. فهو يغذي النزعة العدوانية لدى المريض، الذي يستجيب بشكل سلبي: (ارتكاب الجرائم، الادمان على المخدرات، والانتحار) وليس سراً القول، بأن تاريخ التحليل النفسي حافل بالكوارث والأحداث المأساوية، حيث ان نسبة كبيرة من المرضى، والمحللين النفسانيين، كان مصيرهم الانتحار.

ثم تحدث المحلل النفسي، الأرجنتيني، «ديفيد روزنفيلد» عن تجربته مع، زبائنه الذين زاروا عيادته، وغالبيتهم كما قال: هربوا من معسكرات الاعتقال، التي أقامها الفاشيون الأرجنتينيون، أو انهم نجوا من الموت بأعجوبة. وأكد على أهمية التحليل الفرويدي، ولكنه اعترف، بوقوع بعض الحوادث المأساوية. واستغل المحللان النفسانيان الاسرائيليان، «هلليل كلاين» و«ايلاني كوجان» الفرصة ليعيدا الالمان بالذاكرة الى المجازر التي

ارتكبها النازيون ضد اليهود، الذين، لا زالوا يعانون وطأة تلك الصدمة الهلعة، ومما قالته ايلاني: «ان الإنسان يتماهى، حين يتعرض للخطر، مع الموضوعات المفقودة، ويهرب في عالم «الفانتازيا»، ويلغي ذاته. وذلك لكي يحمي نفسه من الإرهاب... ان الأطفال في اسرائيل، يمثلون، رمزياً، الأنا الوالدية التي تعرضت للإرهاب النازي».

اذ ذاك، غادر عُمدة المدينة قاعة المحاضرات وهو يردد: «ان الظاهرة النازية، هي ظاهرة، بل حالة عابرة، أما الحالة الصهيونية، فهي حالة مزمنة». وبالفعل فقد كانت الأجواء عاصفة ومتوترة، في قاعة المحاضرات، وهو الأمر الذي أرغم المحاضرين والمناقشين على اختصار محاضراتهم ونقاشاتهم. بل ان بعضهم، لم تتح له فرصة للنقاش.

وهنا لا بد من الإشارة، الى ان نتائج الأبحاث والدراسات البيولوجية، تقول بأن نظرية فرويد، هي موضة قديمة، تخطاها الزمن، اذ انه ليس من اليسير وصف النفس الإنسانية، وتجزئتها. فهي واحدة وكلية.. وقد بينت الممارسة العيادية كذلك خطأ نظرية فرويد. ذلك ان افراغ اللاشعور من محتواه، لا يؤدي الى ازالة العوارض العصابية. واذا كان فرويد قد أخذ بالشعار القديم القائل «الحقيقة تجعلكم سعداء»، فإن هذه الفكرة ليست سوى واحدة من الأفكار الثانوية السائدة في العالم الغربي الحديث الذي يحاول استبدال العلم بالدين.. كما وتدحض نتائج الأبحاث التجريبية التي أجريت حديثاً نظرية فرويد، فقد أجريت دراسة اقتضت اخضاع 16 ألف طفل للمراقبة حتى بلوغهم سن الثانية عشرة. وبينت ان الصدمة النفسية في الطفولة الأولى ليس لها أي تأثير على الصحة النفسية، بل لا وجود على الإطلاق لما يسميه فرويد بالصدمة النفسية وتخلص الى القول بوجود العديد من العوامل والظروف التي تؤدي الى العصاب. لكنها لا تنحصر بمرحلة الطفولة.

وفي ضوء هذه النتائج، يعلن عدد كبير من الباحثين، بأنه لم يبق من قصر فرويد سوى ركن واحد، هزيل، وهو تفسير الأحلام.. الذي أخذ الباحثون على عاتقهم مهمة هدمه. فنتائج الأبحاث التجريبية التي أجريت في المختبرات. حول المسارات والتحولات الفيزيولوجية في دماغ النائم، ترى ان كتاب فرويد (تفسير الأحلام) إن هو إلا حكاية خرافية خيالية. فالحلم ليس الطريق الملكي المؤدي الى اللاوعي، ولا هو تحقيق رغبة كما يقول فرويد. أثناء الحلم يحاول الدماغ تحويل الإشارات المنبعثة من الدماغ، والتي تكون عادة مبهمة ومشوشة الى رسائل معقولة ذات مغزى. ولا يخفى ان هناك العديد من الأحلام التي لا معنى لها... ولكن في «تفسير الأحلام» انتصرت الأفكار الخيالية على الباحث العلمي».

وانطلاقاً من هذه النتائج يتساءل همنغر: لماذا لا يصار الى الغاء التحليل والعلاج النفسي طالما انهما لا يتسمان بالعملية؟؟ والجواب: هو أن العلم حتى الآن ليس قادراً على نفي أو تأكيد هذه النظرية. كما لا يمكن التأكيد على فائدة، أو عدم فائدة العلاج النفسي. ولا زال التحليل أشبه بسلسلة طويلة من سلاسل «محاكمة الزنادقة»: ان غالبية رواد علم النفس: يونغ، ادلر، رايش جانو، مكتشف العلاج البدائي الأول، جميعهم رفضوا نظريات فرويد وصاغوا نظريات وطرائق جديدة في علم النفس. جميعهم كانوا في قرارتهم على قناعة بأن التحليل سيكون قادراً على حل لغز النفس البشرية.

والحقيقة ان فرويد وعد مرضاه بعلاجهم. ولكن «برأي «فروم» أضفى على حركته صفة تبشيرية. أما المحلل النفسي البريطاني توماس زاز، فإنه أعلن، ان التحليل النفسي زائل لا محالة، كما زال الحزب النازي، وهو (أي التحليل النفسي) تماماً، كالحزب الليبرالي البريطاني، قد بدأ يلفظ أنفاسه الأخيرة».

أما النفساني «ولفغانغ شميدباور» فقد قال في

مساهمته: «لست قادراً على رفض نظرية فرويد، كما انني لا أستطيع اثباتها. ولكن، عبر ممارستي العيادية، توصلت الى نتيجة مفادها، ان التحليل النفسي يزول، مع زوال مسببات الخوف والقلق والإرهاق الناجمة أساساً عما يسمى بالتطور التكنولوجي، والصواريخ النووية العابرة للقارات.

وأخيراً، هل قدم المؤتمرون شيئاً جديداً؟؟ وهل يمكن اسقاط فرويد عن عرشه، والجواب، هو، حتى الآن، لا، كبيرة.